البلاغة النبوية في خطبة الوداع :

ترقى البلاغة النبوية إلى أعلى مدارج الكمال البشري في حسن التأتي للمعاني بأدق ما يمكن أن تؤديه المفردات والجمل من دلالات ومعان تقع في النفوس موقعاً بالغاً من التأثير ما لا تنقضي عجائبه ولا يذهب بروائه ورونقه تقادم العهد وكثرة الترداد و الرسول ((ﷺ)) – وقد صنعه الله على عينه – يرسل الحديث سليقة وإلهاماً، سليماً مما يعتري كلام الناس من خلل أو اضطراب،ومن أجمل ما أنت قارئ في وصف كلام رسولنا عليه السلام، وجميل خطابه، وظهور حُجّته وبيانه ما قال الجاحظ – وهو يصف حُسن كلام رسول الله -ﷺ- وفصاحته: "وأنا ذاكرٌ بعد هذا فنًّا آخر من كلامه صلّى الله عليه وسلّم .. وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلُّف، وكان كما قال تبارك وتعالى: قُل يا محمد: **{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص:٨٦]** فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب - وهو الكلام بأقصى قعر الفم واستَعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر.. وهجَر الغريب الوحشيّ، ورَغِب عن الهجين السُّوقيّ، فلم يَنطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق .... ثم لم يسمع الناس بكلامٍ قط؛ أعمَّ نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبيَن في فحوى؛ من كلامه صلّى الله عليه وسلّم كثيرًا" ولا عجب أن الرسول ((ﷺ)) قد نشأ في أفصح القبائل، إذ كان مولده في بني هاشم، وأخواله من بني زهرة ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، لذا قال – عليه الصلاة والسلام: ((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر)).

النص الكامل للحديث:

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَقَدْ بَلَّغْتُ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ، وَلَكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ. قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لَا رِبَا، وَإِنَّ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ

الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَأَنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دِمَائِكُمْ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ فَهُوَ أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ ((إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَاما، لِيُواطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهِ))التوبة: ٣٧وَيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ، وَرَجَبُ مُضَرَ ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ. أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكُسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ الله، واستحللتم فزوجهنّ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ، فَاعْقِلُوا أَيُّهَا النَّاسُ قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيِّنًا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ، تَعَلَّمُنَّ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظْلِمُنَّ أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ فَذُكِرَ لِي أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهمّ اشْهَدْ.

التطبيق:

يستهل الرسول (ﷺ) خطبته بقوله:**((أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً)).**

نلحظ أول ما نلحظ هذا النداء القريب إلى النفوس، إذ استغنى عن أداة النداء ((يا))، وغيرها تحقيقاً لهذا القرب والتلاحم مع أبناء الأمة الذين زالت الهوة بينهم وبين معلمهم وهاديهم.

إن حذف أداة النداء قد حقق هذا القرب والتلاحم، فكأن الناس قريبون إليه يناديهم بأرق النداء وأعذبه ليستميل قلوبهم إلى ما يلقي عليهم من حسن التوجيه وسديد الإرشاد.

((اسمعوا قولي)) اسمعوا فعل أمر، وللأمر وجهتان في التعبير البلاغي: حقيقي ومجازي، وللمجازي أغراض متعددة.

ينبغي أن نحدد بادئ ذي بدء مدلول الأمر الحقيقي والمجازي لنتبين في أي المسارات تتجه هذه الصيغة.

الأمر الحقيقي: ((صيغته موضوعة لطلب الفعل استعلاماً، لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ما سواه على القرينة)).

أمـــا صـــيغة الأمـــر المجـــازي – فكمـــا قـــال القزوينـــي – قـــد تســـتعمل فـــي غيـــر طلـــب الفعـــل بحســـب مناســـبة المقـــام، كالإباحـــة... والتهديـــد... والتعجيز... والتسخير)).

وإنـــي أرجـــح أن الأمـــر فـــي هـــذا الموضـــع مجـــازي، وذلـــك بدلالـــة الاســـتهلال الرقيـــق، فـــلا يســـوغ أن يكـــون النـــداء يحمـــل فـــي تضـــاعيفه مـــن معـــاني التـــودد والتلطـــف ثـــم يعقبـــه مباشـــرة بمـــا يـــدل علـــى الأمـــر خشـــية أن يقـــع ذلـــك مـــن نفـــوس ســـامعيه موقعـــاً لا يرتضـــيه، ولمـــا يحصـــل مـــن التفـــاوت بـــين الرقـــة والتلطـــف وبـــين الشـــدة التـــي يحملهـــا الأمر الحقيقي مدلولاً من مدلولاته.

ومـــا يلـــي هـــذا الأمـــر مـــن العبـــارات يعـــزز مجازيتـــه، وذلـــك فـــي قولـــه (ﷺ): **((فـــإني لا أدري لعلـــي لا ألقـــاكم بعـــد عـــامي هـــذا...))** فجملـــة المقطـــع تتســـم بالانســـيابية وهـــدوء النبـــرة، ممـــا يتســـق مـــع مجازيـــة الأمـــر الســـابق علـــى هـــذا المقطـــع، ولمـــا فـــي الأمـــر الحقيقـــي – لـــو كـــان المـــراد – من القوة والشدة.

فـــإني لا أدري...: إن: مـــن أدوات التوكيـــد، وهـــي تـــرد فـــي غضـــون الخطبـــة بكثـــرة ملحوظـــة، ولكـــل موضـــع تـــرد فيـــه ((إن)) دلالـــة التوكيـــد والأهمية.

فهـــل كانـــت ((إن)) مـــن مؤكـــدات مضـــمون هـــذا القـــول، وهـــل هـــي مـــن مقتضـــياته؟ أمـــا كـــان منتظـــراً أن يقـــول: فلعلـــي لا ألقـــاكم بعـــد عـــامي هذا؟.

أقـــول: لـــو جـــاء الكـــلام علـــى هـــذه الشـــاكلة لمـــا تـــأتى لهـــذا الكـــلام أن يفعـــل فعله التوجيهي العقائدي.

إن جـــو الكـــلام منـــذ اســـتهلاله يـــوحي بـــأن الرســـول (صـــلى الله عليـــه وســـلم) قـــد وقـــف وقفـــة الـــوداع، فـــأراد أن يقـــرر حقيقـــة رحلـــة الإنســـان مـــن حياتـــه الـــدنيا، بتقريـــره أنـــه – وإن كـــان رســـولاً يـــوحى إليـــه – فهـــو لا يدري متى سيكون رحيله.

وربمـــا يـــرد فـــي هـــذا الموضـــع ســـؤال مفـــاده: ألـــيس هـــذا يعنـــي أن الرسول (ﷺ) قد أوحي إليه بدنو أجله؟.

نقول: ربما أوحي إليه بذلك، ولكن لم يرد أن يقطع بشيء من ذلك، فالله وحده الذي يقرر والاستشعار بدون الأجل ليس معناه معرفة ساعة الرحيل على وجه الدقة والضبط، ثم أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يشأ أن يجعل المسلمين في دوامة الاضطراب والقلق خشية أن ينفرط شملهم ويصيبهم من الذهول ما لا يرتضيه لهم.

ومن الملاحظ البلاغية في استخدام ((إن)) في هذا الموضع أنها جاءت في عقب جملة سابقة فقد كان مجيء ((إن)) ضرباً من ضروب التوثيق بين الجملتين.

قال الزملكاني: ((وتجيء – أي إنّ – اربط بين جملتين لتوصل أحداهما بالأخرى، فتراهما بعد دخولها كأنهما قد افرغا في قالب واحد)).

((لعلي)) أداة الترجي، هذه الأداة لم تحظ بعناية البلاغيين قدر ما عدوه أداة نحوية فحسب.

وكان الأجدر البلاغيين أن يتحدثوا عن هذه الأداة في جملة ما تحدثوا به عن غيرها من أساليب التعبير كالأمر والاستفهام والنهي والتمني وأن يعدوها في الإنشاء غير الطلبي بوجه خاص، كما فعلوا بصنوها ((ليت)).

والمعنى الأساس للأداة ((لعل)) هو الترجي ولو تتبعنا دلالالتها المجازية لوجدت أنها تخرج إلى معان أخر، وربما كان التقرير أو التمويه أو التمني من جملة دلالالتها.

وإني انفي أن تكون دلالتها في الخطبة ترجياً، بل هو تقرير واشعار بدنو الأجل، ولكن الرسول (ﷺ) أراد أن يجعل الأمر مرهوناً بالآجال التي قرر أنه لا يدري مواقيتها.

ترد بعد ذلك الحقائق التي أراد الرسول (ﷺ) أن يغرسها في نفوس المسلمين على أنها أحكام للحياة لا تحتمل تأويلاً ولا تقبل حيدة أو جنوحاً. فجملة ما واجه به المسلمين وردت بصيغة التوكيد الحقيقي.

وقد قرر البلاغيون أن ((الإهتمام بالشيء وانفعال النفس به يستوجب ضرباً من تأكيده، أمراً أو نهياً أو خبراً يستلزم طلباً أو خبراً يقع في الجواب)) وقد جاء التوكيد في مقاطع الخطبة بأكثر

مـــن وســـيلة، وهـــي:أداة التوكيـــد ((إنَّ)) والتكـــرار، وتقـــديم مـــا حقـــه التأخير (ومنه القصر)، وأدانا التحقيق والتوكيد ((قد وكل)).

وممـــا جـــاء مؤكـــداً بـــإن: **((إن دمـــاءكم وأمـــوالكم علـــيكم حـــرام...)) ((وإنكـــم ســـتلقون ربكـــم...)) ((وإن ربـــا عبـــاس بـــن عبـــدالمطلب موضـــوع كلـــه...)) ((وإن كـــل دم فـــي الجاهليـــة موضـــوع)) ((وإن أول دمـــائكم أضـــع...))** وممـــا جـــاء مؤكـــداً بـــالتكرار: **((كحرمـــة يـــومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا...)).**

إن حرمـــة الأمـــوال والـــدماء ولقـــاء الله ووضـــع الربـــا والـــدماء ممـــا تعـــد مـــن كبريـــات القضـــايا التـــي كانـــت تســـود حيـــاة العـــرب، وكـــان لابـــد لهـــا مـــن الحســـم القـــاطع، تنقيـــة للمجتمـــع الإســـلامي مـــن كـــل بقايـــا الجاهليـــة ومواريثهـــا، ولـــذلك تصـــدرت هـــذه المقـــاطع أداة التوكيـــد ((إن)) التـــي تضـــمن الإيصـــال والتثبيـــت إضـــافة إلـــى حســـم التـــردد والشـــك فـــي القبـــول والتلقي.

ولقـــد ذهـــب البلاغيـــون إلـــى أن اســـتخدام أداة التوكيـــد واحـــدة ضـــمن العبـــارة هـــي لحســـم الشـــك والتـــردد قـــال القزوينـــي: ((وإن كـــان متصـــور الطـــرفين، متـــردداً فـــي إســـناد أحـــدهما إلـــى الآخـــر طالبـــاً لـــه حســـن تقويتـــه بمؤكـــد)) والتكـــرار هـــو الآخـــر إشـــعار بأهميـــة الأمـــر وإعظـــام لشـــأنه قـــال (ﷺ): كحرمـــة يـــومكم هـــذا، وكحرمـــة شـــهركم هـــذا والحرمـــة فـــي حيـــاة المســـلمين قضـــية لهـــا مـــن الخطـــر والجـــلال مـــا لهـــا، وتكـــرار اللفظـــة إيقـــاظ الحـــواس، ولا يغـــب عـــن البـــال مـــا أضـــافه تكـــرار (هـــذا) فـــي نهايـــة كـــل مقطـــع مـــن إيقـــاع لفظـــي زاد مـــن جـــلال التوكيـــد جـــلالاً، وكـــان لـــه مـــن الواقـــع مـــا يحفـــز النفـــوس إلـــى تثبيـــت والتملـــي واســـتيعاب القضـــية بكـــل أبعادهـــا النفســـية والفكريـــة، وهـــذا ((علـــى جانـــب مـــن التنغـــيم النافـــذ إلـــى الـــروح، ندركـــه دائمـــاً فـــي حســـن جرســـه وتعـــانق معانيـــه وتتـــابع موجاتـــه، يدفع بعضها في نشاط وتشابه).

((وقد بلغت)): في هذا المقطع أكثر من دلالة بلاغية:

١ – اســـتخدام (قـــد) مفيـــدة التحقيـــق هـــو لـــون آخـــر مـــن ألـــوان التوكيـــد التـــي تحفـــل بهـــا كظـــاهرة معنويـــة موظفـــة للتبليـــغ والتثبيـــت ولفـــت الأنظـــار نحـــو الأحكـــام النبوية.

٢ – حذف المفعول به: يقول الإمام عبدالقاهر في بلاغة الحذف وأثره الجميل في تقوية الفكرة((هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فتلك ترى به ترك المذكور أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن)) وإن البيان النبوي قد استغنى عن المفعول به لعمومه، ودلالة ما سبقه عليه من جهة، إذ أنه ((يتناول كل ما يصح أن يدخل تحت هذا الفعل، فليس ذكر البعض بأولى من الآخر))، ومن جهة أخرى فإن الاهتمام بالفعل هو المراد، أي أن الرسول (ﷺ) أشهدهم على أنه قام بالتبليغ.

٣ – ورود المقطع بالصيغة الخبرية، ولعل في هذه الصيغة من الثقة والاعتداد بتجاوب المسلمين ما لم يجد معه حاجة إلى إلتماس الأساليب الإنشائية التي تساق غالباً في مواضع بها حاجة إلى استثارة الهمم وقرع النفوس التي قد تتلبس ببعض الغفلة أو التردد.

((وقد بلغت)): صيغة الحسم والقطع، بل صيغة الاشعار بأن هذا هو البلاغ النهائي الذي لا بلاغ من بعده.

ومن أساليب التوكيد التي وردت في غضون هذه المقاطع: **((إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام)) ((ولكن لكم رؤوس أموالكم))** نجد في المقطع الأول تقدم الجار والمجرور (عليكم) على خبر إن، وهو في عرف النحاة فضلة من حقها أن تتأخر، ولكن له في البيان النبوي تقدم ملموس ظاهر، ترى أكان التناغم اللفظي هو الذي استدعى هذا التقديم، أم أن وراء تقديمه غاية معنوية أخرى.

إن البيان النبوي قد توخى الإيقاع المتناغم الذي يكسب العبارة جمالية محببة إلى النفس من خلال توالي: **دمائكم – أموالكم – عليكم** – إذن نحن لا ننفي هذه الصيغة الجمالية التي هي من أجلى خصائص البلاغة النبوية التي اجتمعت فيها – على حد قول الرافعي – ثلاث صفات هي:الخلوص والقصد والاستيفاء إلا أننا في الوقت ذاته نحسّ أن التقديم إن خلا من الفائدة المعنوية فإن الجانب الجمالي يظل حلية ننزه البلاغة النبوية عن أن تكون هدفاً من أهدافها.

إن الذهن ينتظر خبر (إن) ليكتمل به المعنى الأساس، فإذا بالذهن يقرع بالجار والمجرور (عليكم) خطاباً مباشراً إلى المسلمين؛ إذن الأمر الذي سيسمعونه خطير، فهو يعنيهم ويمس وجودهم وكيانهم،

ففي هذه اللحظة يساق الخبر حكماً من الأحكام خطير الشأن، بعد أن هيأ تقديم الجار والمجرور الأذهان لتلقي الخبر.

وكذلك الأمر في قوله (ﷺ): **((ولكن لكم رؤوس أموالكم))** فإنه إشعار إلى أن ما كان غير محذور يعود إلى أصحابه؛ فرؤوس الأموال حق مشروع من حقوقهم دون ما يتمخض عن الربا من أموال لا يباح لهم تملكها وحيازتها ومن أجل أن لا يظنوا أنهم سيضيعون كل شيء بعث في نفوسهم الطمأنينة من خلال (لكم) وهو خبر مقدم، لو قال: ولكن رؤوس أموالكم لكم، فلربما ذهبت الظنون أنها هي الأخرى ستضيع، فالخبر هو الأهم في أن يذكر أولاً، فإن تقدمه باعث على الطمأنينة وراحة البال.

ومن خلال المقاطع السابقة تلفت أنظارنا صيغ جديرة بالوقوف للتعرف على دلالتها الخاصة من خلال تراكيبها الخاصة.

((وإنكم ستلقون ربكم))إن من أركان العقيدة أن يلقى العباد ربهم ليحاسبهم ويسألهم عن أعمالهم والفعل في الجملة مصدر بسين الاستقبال، وهذه السين قد حققت إحساس السامع يقرب هذا اللقاء، وقد عدل البيان النبوي عن ((سوف)) وهو أيضاً حرف استقبال ولكنه يدل على تحقق الفعل بزمن أبعد، وربما كان في استخدامه في ظاهر الحال أكثر دلالة على السين، إلا أن ((السين)) فيها من دلالة القرب ما يشعر أن الأمر واقع لا محالة، ليكون ذلك الإحساس باعثاً على التعجيل بالإلتزام والتمثل والتطبيق.

وحين تحقق السين هذا الإحساس دون سوف الدالة على التراخي الزمني فإن البلاغة النبوية قد حققت مبدأ المطابقة لمقتضى الحال بدقة متناهية.

ونقف عند الفعل ((فليؤدها)) وهو مضارع مجزوم بلام الأمر جاء جواباً لشرط لا يحتمل إلا هذه المباشرة التي وضحت الحكم بكل أبعاده، فالأمانة ينبغي أن تؤدى، وإذا لم يكن هناك سبيل إلى غير ذلك فلا مناص للمخاطب إلا أن يفعل والأمر هنا حقيقي، وحقيقته هي من مقتضى الموقف الذي يتطلب ذلك.

وقوله (ﷺ): **((تظلمون ولا تظلمون))((قضى الله أنه لا ربا))** والجواب عن ذلك يتطلب النظر إلى الموضوع من جهتين:

الأولى: أن الرسول (ﷺ) استشهد بآية كريمة، والاستشهاد لا يحتمل الإضافة والزيادة.

الثانية: أن الاستغناء عن أدوات التوكيد في عرف البلاغيين لأمرين: إما أن المخاطب خالي الذهن، أي أنه غير متردد في قبول الحكم، أو غير منكر له حتى يتطلب أداة للتوكيد، وأما أن المتكلم ينزل المتردد أو المنكر منزلة خالي الذهن، لأن الموضوع مما لا يحتمل شكاً أو إنكاراً قال القزويني في بيان ذلك:((فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر، والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم)).

وقوله (ﷺ): قضى الله أنه لا ربا أرى أن ننظر فيه من وجهتين:

الأولى: إن خلو المقطع من أدوات التوكيد هو أيضاً من باب إنزال المتردد أو المنكر منزلة خالي الذهن لوضوح الأمر وبداهته، فكيف يصح في شرع قوامه العدل والحق أن يكون فيه إباحة للربا وهو ظلم فاحش.

الثانية: إنني ألمح أن الصيغة التي سبقت بها العبارة مؤكدة لذاتها، وهذا يدعونا إلى القول أن في المقطع توكيداً ضمنياً يوحي به عموم العبارة، فهل يفهم من الفعل ((قضى)) غير الأمر الجازم الذي لا محيد عنه، وهل يفهم من قوله ((لا ربا)) بهذا النفي غير أن يكون الحكم حاسماً لا خلاف عليه.

ويشبه ذلك ما يستخدم من العبارات الشائعة من قولهم: يجب أن – ولابد أن – ولا مناص من، أليست هذه الصيغ مما يحمل التوكيد ضمناً من تضاعيفها.

وبهذا يمكننا أن نضيف نوعاً جديداً لأساليب التوكيد المعنوي واللفظي نسميه بالتوكيد الضمني. وهو ما يستفاد من عموم العبارة التي تساق بحيث لا تحتمل من المعاني إلا وجهاً واحداً يفيد الجزم والحسم والتوكيد.

وفي الختام تجسد الحرص النبوي على أن تبلغ جملة هذه التوجيهات من مكامن نفوس المسلمين إلى صورة التوكيد. **((فلا تظلمن أنفسكم))** وكان يسعه (ﷺ) أن يقول: فلا تظلموا أنفسكم،

ولكن نون التوكيد هي بمثابة أداة القرع للنفس خشية أن تغفل فتضل.

ثم أعقب ذلك بصيغة إنشائية: اللهم هل بلغت... والصيغة المعتمدة هي الاستفهام، ليستوثق من يقظة المسلمين وتجاوبهم فيسمع منهم الجواب الذي يبعث في نفسه الطمأنينة على أن ما زرعه من كلمات إنما هي هي الشجرة التي ضربت بجذورها في الأعماق، وسمقت إلى الأعالي باسقة ظليلة آنية ثمراً طيباً.

وهنا تستوقفنا الصيغة الاستفهامية لنسأل أنفسنا: هل جاء الاستفهام في هذا الموضع حقيقة أم مجازاً؟

أود أن أعرض للأمر من جانبين: كل جانب يجدد مسار هذا الاستفهام.

الجانب الأول: يتصل بالرسول (ﷺ) مبلغاً للأمانة، فقد عدل عن الصيغة الإخبارية على النحو الذي ورد في أول الخطبة **((وقد بلغت))** لكي يأتي التقرير أشد في النفس وأوقع، وادعى إلى الطمأنينة.

أي أن الاستفهام مجازي خرج إلى التقرير والتثبيت.

أما الجانب الثاني: فهو مما يتصل بجمهور سامعيه حين حملوا الاستفهام على معناه الحقيقي، فأجابوا: اللهم نعم.

ونحن نعلم أن الاستفهام المجازي هو ما لا يحتاج إلى جواب، لأنه ليس من قبيل طلب حصول الفهم – كما يقول البلاغيون)).

وبذلك حققت البلاغة النبوية نمطاً فريداً من التعبير راعى فيه حالة المتكلم وموقفه مبدئياً ونفسياً، وراعى في الوقت ذاته المخاطبين وما هم عليه من موقف إزاء ما يلقى عليهم، فوجدوا أنفسهم أن الرسول (ﷺ): يستفهم بقوله **((هل بلغت))** ليجيء الجواب في إثره: اللهم نعم... وهو جانب يعزز الحالة النفسية للرسول المبلغ حيث استوثق أنه أدى الأمانة كاملة غير منقوصة.